

حين يدخل المعلم الفصل... لا يدخل وحده

حين تُفتح أبواب المدرسة في أول صباح من العام الدراسي، وتتعالى أصوات الخطوات في الممرات، وتُرتَّب المقاعد، وتُفتح الكتب، ويقف المعلم أمام طلابه للمرة الأولى... قد يبدو المشهد عاديًا ومتكررًا.

لكنه ليس عاديًا أبدًا.

ففي ذلك الفصل، في ذلك الصباح، تبدأ حكايات لا يعرف أحد كيف ستنتهي.

حين يدخل المعلم الفصل... لا يدخل وحده.

يدخل معه علمه، وخبرته، وشخصيته، وقيمته، وذكرياته، وطريقته في النظر إلى الحياة.

ويدخل معه أيضًا شيء أكبر من ذلك كله: أثره.

فأنت أيها المعلم، وأنت أيها المعلمة، لا تقفون أمام مجموعة من الأرقام والأسماء في كشف الحضور، ولا أمام عقول تنتظر أن تمتلئ بالمعلومات فحسب.

أنتم تقفون أمام أرواح في طور التشكُّل.

قد يكون بين طلابكم من جاء إلى المدرسة وهو يحمل فرحًا كبيرًا، وقد يكون بينهم من جاء وفي قلبه خوف لا يعرف كيف يعبر عنه، أو بيت مضطرب، أو فقدٌ لم يخبر به أحدًا، أو شعور عميق بأنه أقل من الآخرين.

قد تجلس أمامك طالبة تبتسم طوال الحصة، بينما تخوض في داخلها معركة لا يعرفها أحد.

وقد يجلس في آخر الفصل طالب يثير الفوضى، ويبدو لك مستهترًا، بينما هو في الحقيقة يبحث، بطريقة

خاطئة، عن شخص يراه ويقول له: أنا أراك.

ولهذا...

لا تجعلوا أول ما يلتقطه الطالب منكم هو القسوة.

ولا تجعلوا أول ما يسمعه منكم هو المقارنة.

ولا تجعلوا الخطأ الأول الذي يرتكبه تعريفاً دائماً له.

امنحوه فرصة أن يكون أفضل مما كان عليه بالأمس.

فكم من إنسان تغير لأن معلماً واحداً آمن به في الوقت الذي لم يكن هو نفسه يؤمن بنفسه.

وكم من طالبٍ كان على وشك أن ينسحب من الطريق، فأوقفه معلم بكلمة.

وكم من طالبةٍ ظنت أنها لا تصلح لشيء، ثم جاءتها معلمة وقالت لها ذات يوم: أنا أرى فيك شيئاً مميزاً.

وربما لا تتذكر المعلمة تلك الجملة بعد سنوات.

لكن الطالبة قد تتذكرها طوال عمرها.

وهنا تكمن عظمة هذه المهنة.

المعلم لا يعرف دائماً أين ستذهب كلماته.

د تقول جملة عابرة في صباح مزدحم، فتسكن في قلب طالب سنوات.

وقد تبتسم لطالب في لحظة ظن فيها أنه غير مرئي، فيتغير شيء عميق داخله.

وقد تمنح طالبًا فرصة ثانية، فيتعلم منك أكثر مما تعلمه من عشرات الدروس.

وقد تعتذر لطالب إذا أخطأت في حقه، فتعلّمه درسًا في الأخلاق لن يجده في أي كتاب.

لذلك، لا تقيسوا نجاحكم فقط بعدد الدروس التي أنجزتموها، ولا بعدد الصفحات التي قطعتوها من المنهج.

نعم، المعرفة مهمة.

والانضباط مهم.

والتحصيل مهم.

والاختبارات والدرجات مهمة.

لكن هناك أشياء لا تظهر في كشف الدرجات، وهي ربما أهم ما يتركه المعلم خلفه:

طالبٌ أصبح أكثر ثقة بنفسه.

طالبةٌ اكتشفت أنها قادرة.

طالبٌ تعلّم احترام الاختلاف.

طالبةٌ أدركت أن الفشل ليس نهاية الطريق.

طالبٌ تعلّم أن السؤال ليس عيبًا.

وإنسانٌ خرج من المدرسة وهو يحمل في داخله إيمانًا بأنه يستطيع أن يصنع شيئًا جميلًا في هذه الحياة.

هذا أيضًا تعليم.

بل ربما يكون هذا هو التعليم الذي يبقى.

أيها المعلم...

قبل أن تبدأ شرح الدرس، تذكر أن هناك طالبًا ينتظر منك أكثر من المعلومة.

قد ينتظر منك أمانًا.

وقد ينتظر منك اعترافًا بوجوده.

وقد ينتظر منك أن تقول له، بطريقة أو بأخرى: أنت تستطيع.

وأيتها المعلمة...

قبل أن تطلبي من طالبتك أن تكون مثالية، تذكري أنها إنسانة تتعلم، وتتعثّر، وتخطئ، وتخاف، وتحاول.

لا تكونوا معلمين يخاف منهم الطلاب.

كونوا معلمين يأمنون إليهم.

فالطالب الذي يخاف من معلمه قد يحفظ الدرس، لكنه قد يغلق قلبه.

أما الطالب الذي يشعر أن معلمه يريد له الخير، فسيفتح عقله وقلبه معًا.

وفي بداية هذا العام الدراسي، لا نحتاج فقط إلى معلمين يملكون الإجابات.

نحتاج إلى معلمين يعرفون كيف يسألون، وكيف يستمعون، وكيف يفهمون، وكيف يربّون قبل أن يعلّموا.

نحتاج إلى من يعرف أن خلف كل اسم في قائمة الطلاب قصة .

وأن بعض القصص تحتاج إلى صبر .

وبعضها يحتاج إلى كلمة .

وبعضها يحتاج إلى حزن معنوي لا يُرى ، اسمه : الرحمة .

وتذكروا دائماً :

قد ينسى طلابكم معادلة رياضية .

وقد ينسون تاريخ معركة .

وقد ينسون تفاصيل درسٍ شرحته بكل إتقان .

لكنهم لن ينسوا بسهولة كيف جعلتهم يشعرون وهم في فصلكم .

سيكبرون .

ستتغير ملامحهم .

وقد يذهبون إلى جامعات ومدن وبلدان بعيدة .

وقد يصبح أحدهم طبيباً ، وآخر مهندساً ، وثالثاً معلماً ، ورابعاً أباً أو أمّاً .

لكن شيئاً منكم سيبقى فيهم .

ربما طريقة حديثهم .

ربما شغفهم بالقراءة.

ربما ثقتهم بأنفسهم.

ربما احترامهم للناس.

وربما جملة صغيرة قلموها لهم ذات صباح ولم تدركوا أنها كانت بالنسبة إليهم بداية جديدة.

لذلك، حين تدخلون فصولكم هذا العام، لا تدخلوا إليها وأنتم تقولون:

ماذا سأُنهى اليوم من المنهج؟

بل ادخلوا وأنتم تسألون:

ماذا سأترك اليوم في هؤلاء؟

فالمناهج ستنتهي.

والعام الدراسي سيمضي.

والجرس سيرن آخر مرة.

والطلاب سيغادرون مقاعدهم.

لكن الأثر لا يرن معه جرس.

الأثر يبقى.

ويبقى طويلاً.

وربما بعد عشرين أو ثلاثين عامًا ، يمر أحد طلابكم بموقف في الحياة ، فيتذكر معلمًا قال له ذات يوم:

«أنا أثق بك.»

وحينها ، ستعرفون أنكم لم تكونوا تدرّسون مادة.

كنتم تزرعون إنسانًا.

فيا معلم الأجيال...

حين تدخل فصلك هذا العام ، تذكر:

أنت لا تدخل وحدك.

دخل معك مستقبل أشخاص لم يكتملوا بعد.

وتدخل معك احتمالات عظيمة لا تعرفها.

وقد يكون بين يديك اليوم طالبٌ سيحتاج ، بعد سنوات ، إلى أثر كلمة منك أكثر مما يحتاج إلى أي درس آخر.

فكن جديرًا بهذه الأمانة.

علّّمهم العلم...

لكن لا تنسَ أن تعلّمهم الإنسان.

ارفع سقف طموحهم...

لكن لا تكسر قلوبهم.

صحّح أخطاءهم...

لكن لا تجعل الخطأ هو هويتهم.

حاسبهم...

لكن لا تحرمهم من الرحمة.

وإذا عجزت يوماً عن أن تغيّر العالم كله، فلا بأس.

غيّر عالم طالب واحد.

ربما كان ذلك الطالب يوماً ما سبباً في تغيير عوالم كثيرة.

عام دراسي جديد مبارك لكل معلم ومعلمة...

وتذكروا: حين يدخل المعلم الفصل... لا يدخل وحده؛

يدخل معه أثرٌ قد يبقى في قلب إنسان إلى آخر العمر.